



Cloé Drieu et Julie d'Andurain (Sous la direction de).- Par-delà le théâtre européen de 14-18: L'autre Grande Guerre dans le monde musulman, *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, N° 141, 2017.

الوجه الآخر للحرب العالمية الأولى في العوالم الإسلامية.

خصصت مجلة العوالم الإسلامية والبحر الأبيض المتوسط¹ عددها رقم 141 لتتبع مسار الانكسارات التي أحدثتها الحرب العالمية الأولى في الفضاء الإسلامي

وتحديدا في المجالات الواقعة تحت نفوذ الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الروسية والإمبراطوريتين الاستعماريتين الإنجليزية والفرنسية، إذ حاولت تناول هذا الحدث الكوني الكبير في إطار منظومة التاريخ الشامل من خلال المقابلة بين المقاربات التي نظرت بها إسطوغرافية أوروبا الغربية إلى هذا الحدث، وتحديدا في شقها الاجتماعي والثقافي، وبين مثيلاتها في العوالم الإسلامية.

وفي ضوء ما استجد تحقيقه من أعمال في حقل الدراسات الاستعمارية والإمبريالية، تطرح معالجة هذا الموضوع إشكالية زمنية الحرب أي مدى صلاحية المراهنة على كرونولوجية 1914-1918 المتعارف عليها في أوروبا الغربية، سواء على مستوى إدراك هذا الحدث العالمي والانخراط فيه، أو على صعيد تاريخ الخروج منه. ولا غرو أن مقارنة من هذا القبيل، قد أتاحت إمكانية إعادة التفكير في موضوع الاستعمار من زاوية دراسة المواقف المختلفة للسكان المهشمة والأقليات الممتدة عبر الإمبراطوريات والمقارنة بينها. ويتعلق الأمر إذن بتشخيص عبر-ثقافي لما حدث في التخوم الشاسعة لهذه الإمبراطوريات المحتضنة لقوميات وأعراق كثيرة وثقافات متعددة المشارب والأصول تتجاذب بين مد عدم التجانس وجزر التعقيد، وهو تشخيص من شأنه الإسهام لا محالة في إعادة فحص الديناميات المتحركة في القرارات المتخذة وفهمها إبان الحرب على المستوى المركزي.

1. Par-delà le théâtre européen de 14-18: L'autre Grande Guerre dans le monde musulman, *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, N° 141, Sous la direction de Cloé Drieu et Julie d'Andurain.

ومن هذا المنظور، تخول معالجة هذا النوع من الدراسات المحلية رصد تطور الفعل الإمبراطوري في شموليته، في محاولة للتوصل إلى معرفة كيف أدى بزوغ النفوذ البريطاني والفرنسي على أنقاض القوتين القاريتين العثمانية والروسية عقب الحرب العالمية الأولى، إلى إعادة صياغة عالم مبني على تفصلات جديدة قوامها ترسيخ مفهوم الأمة بدلا من مفهوم الإمبراطورية.

وتتمركز المقالات الإحدى عشر التي تشكل مواد هذا العدد حول ثلاث قضايا، تهم أولاها طرائق عمل القوى الغربية المتمحورة حول التسميات والنعوت التي توظف لتعريف أو إعادة تعريف مجالات الهوامش المتعددة الإثنيات البحرية والبرية للعالمين العثماني والروسي، أو تلك المستعملة في الركوب على مطالب ساكنتها. وتساءل الثانية معضلة الحدود الكرونولوجية الحقيقية للبداية الضمنية والنهاية الفعلية للحرب العالمية الأولى. بينما تنصب الثالثة على الجدل الذي دار بخصوص الإسلام وفي أوساط المسلمين زمن الحرب، والذي رزح في شكله ومضمونه تحت نير تأثير الخطابات المنبثقة عن فكرة الجامعة الإسلامية من جهة، وآليات توظيف مفهوم الجهاد في أطوار الحرب من جهة أخرى.

ولعل الخاصية الأساسية التي تميز المجال المترامي الأطراف المدروس ضمن مواد هذا العدد هي التنوع والتعدد، فضلا عن الخضوع إلى طرائق حكم مختلفة تأرجحت بين شكل معين من أشكال الاستقلال الذاتي (مصر والجبل اللبناني)، وبين وضع شبه كولونيالي (المشرق واليمن)، وأخيرا بين مناطق اقتطعت من قبل القوى الاستعمارية الكبرى (الجزائر وتونس والخليج الفارسي) أو من قبل روسيا في إشارة إلى إقليم تركستان. لقد حددت "مسألة الشرق" طبيعة المنطق الترابي والبحري الذي حكم استراتيجيات القوى الغربية في التعامل مع معضلة عدم تجانس المكونات العرقية والدينية لساكنة الإمبراطوريات المستهدفة، في ظل تفاقم التوترات الإثنية، وتمظهر طموحات الأقليات في صفوف المسلمين والمسيحيين واليهود والأكراد والعرب عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، وما أعقبها من مواجهات متعددة الأطراف أسفرت عن عنف تجسد في التهجير القسري المكثف وأحيانا الممنهج للمدنيين، وكساد الانتاج الفلاحي، وانتشار المجاعات والأوبئة. وهي مظاهر خلفت وقعا كبيرا على السياسات الديمغرافية والديناميات الاجتماعية للفضاءين الإسلاميين الإمبراطورين الروسي والعثماني إلى غاية

نهاية ثلاثينيات القرن العشرين جراء تزايد أعداد أسرى الحرب ولاجئها، فضلا عن الفارين من سلك الجنديّة.

وتحليل حركية الساكنة وامتداداتها الزمنية التي تجاوزت مرحلة 1914-1918 إلى وقوف ملف هذا العدد على أهمية بذل المحاولة الرامية إلى إعادة النظر في كرونولوجية الحرب، من خلال الغوص في بدايات تمثاتها ونهاياتها في أذهان الناس، وفي مدى مساهمتها في تدشين معالم قرن جديد في الشرق الأوسط وأوروبا. بل إن الإمبراطورية العثمانية كانت حاضنة لبوادر هذا الحدث قبل اندلاعه الرسمي بفعل تشابك النزاعات بداخلها إلى الدرجة التي تبعثت خلالها في ركام واحد المطالب الترابية والقضايا الهوياتية. وهو ما تعكسه المقارنة بين الدراسات المستندة إلى المصادر العثمانية، والتي تعتبر أن الحرب قد بدأت قبل تاريخها المعلن بسنوات، وبين مثيلاتها المستندة إلى المصادر الأوروبية التي تحددها في سنة 1914. وتوحي كثير من المؤشرات بأن الإرهافات الأولى للحرب الكبرى بدأت مع الحرب الروسية اليابانية 1904-1905 التي شكلت قطعة وازنة بالنسبة لمسلمي أوراسيا، وخاصة أهل مصر منهم الذين رأوا في هزيمة قوة مسيحية كبرى أمام قوة أسيوية إيذانا ببداية سقوط حجاب هيبة الاستعمار. كما قرأ باحثون آخرون الصراعات بحوض البحر المتوسط من قبيل الحروب البلقانية والاحتلال الإيطالي لليبيا، والحرب الإيطالية التركية، باعتبارها مقدمات فعلية للحرب العالمية الأولى، اتخذت من تلغيم الإمبراطورية العثمانية وقضم أطرافها وقودا لها.

وفي الوجه الآخر لهذه المعادلة، راهن بعض المساهمين في هذا العدد الخاص، على تأخير الموعد الفعلي لانطلاق الحرب العالمية الأولى، وحددوه في سنة 1916 بالنسبة لساكنة تركستان ولفيلق الشرق الأرميني الذي أحدثه الفرنسيون. كما مال بعضهم الآخر إلى تمديد تاريخ وضع الحرب لأوزارها إلى غاية 1923 وربما 1924 تاريخ تحلي تركيا عن مفهوم الخلافة. وهو مفهوم يحيلنا على قضية الجامعة الإسلامية التي تمت مقاربتها في هذا العدد الخاص من زاوية التساؤل عن مدى تبلور بعد هوياتي حقيقي داخل هذه العوالم الإسلامية والمتوسطة قائم على الشعور بالتضامن والوحدة، وذلك في ظل إقدام الخليفة العثماني على إعلان الجهاد باعتباره شعارا سياسيا تم توظيفه لتعبئة مسلمي الإمبراطورية العثمانية، واستشور من قبل الألمان لضرب مصالح الإمبراطوريات الاستعمارية ومن طرف إيطاليا في ألبانيا. وعلى الرغم من عجز هذا الإعلان عن تحقيق غاياته في أوساط الساكنة المسلمة المستعمرة، فقد أسفر عن إحداث خلخلة في توازنات

الحرب الكبرى من خلال تحوله إلى حقيقة جيوسياسية لحظة اندلاعها، كما أدت خيبات الأمل التي أعقبت عجز مؤتمر السلام عن تنزيل مبادئ ويلسون، إلى الرفع من سقف مطالب نخب الجهات التي انخرطت في المجهود الحربي.

وتطرح قراءة مواد هذا العدد الخاص بالحرب العالمية الأولى جملة من الأسئلة أهمها:

إلى أي حد يجوز اختزال العالم الإسلامي في المجالات الجغرافية التي تم الاقتصار عليها؟ وأين هي أوضاع بلدان المغرب الكبير أمام هذا الزخم من الأحداث؟ أم أن هناك إرادة مضمرة من وراء هذا التغييب الهدف منها تعميم صورة نمطية عن الحرب لمناطق بعينها على العالم الإسلامي برمته؟ وفي حالة إذا ما انعدمت هذه الإرادة، فلماذا وقع التركيز على الهوامش الشرقية للمغرب؟ ولماذا لم يتم التنقيص في عنوان العدد الخاص على تسمية العوالم الإسلامية المتعددة الأعراق قيد الدراسة بمسمياتها؟

اعتقد بأن الوصول إلى خلاصات تركيبية ذات فائدة يظل رهينا بالدراسة العلمية والتاريخية لأبعاد هذه الحرب وانعكاساتها على بلاد المغرب على المستويات الديمغرافية والسوسيو-اقتصادية، ووقعها على الدواكر الجمعية² وتحديد ما يتصل بتوظيف القوى الدينية لتعبئتها في طواحين الدعاية الهادفة إلى إضفاء الشرعية على عمليات حشد المجندين لخوض غمار الحرب. ويبدو أن المساهمات العلمية المنشورة في هذا العدد، لم تتمكن من تشخيص الأدوار الحقيقية لبريطانيا خصوصا في إعادة صياغة الخريطة الجيوسياسية لهذه العوالم الإسلامية، من خلال استغلالها للطموحات القومية لشعوبها في تحقيق أهدافها التوسعية. كما تغاضت عن استراتيجيات فرنسا القائمة على اللعب على حبل التوترات الطائفية. ومهما تباينت مرجعياتها وخلاصاتهما، ظلت هذه المساهمات في المحصلة النهائية مجرد تجسيد لمفهوم المقاربات الانتقائية الساعية ليس إلى تمثيل كل القضايا المرتبطة بالموضوع، بل إلى إضفاء قيمة تبريرية أحيانا على بعضها، بمعنى أنها لم تعبر عن نبض المجتمعات المستهدفة، ولم تستحضر بشكل كاف أشكالا أخرى لعلاقتها مع الحرب. ألم يكن حريا فسمح مجال أوسع أمام المزيد من الكتابات عن المهزومين والمنسيين زمن الحرب من قبل الدواكر المؤسساتية ليعثوا بدورهم ماضيهم المفقود من جديد؟

محمد جادور

جامعة محمد الخامس بالرباط

2. Jacques Le Goff, *Histoire et mémoire*, éd. (Paris: Gallimard, 1988) 170-171, 352.